بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله العليم القدير والحكيم الخبير ، المنفرد بالخلق والفعل والتدبير ، الفَعّال لما يريد والمنزه عن الشبيه والنظير وواهب البشر العقل والإرادة والتدبير . وصلاة وسلاماً على البشير النذير محمد بن عبد الله ، المبلغ عن الحق سبحانه كل صغير وكبير ﷺ .

لا زال العقل العربى فى حاجة إلى المزيد من الدراسات التى تعالج فروع الفلسفة العربية الإسلامية الرئيسية كالسياسة والأخلاق والتصوف وعلم الكلام . وفى هذا الإطار تأتى هذه الدراسة لتعالج موقف الصوفية من مسألة الحرية والإرادة الإنسانية ، وكيف وضع الصوفية الإرادة الإنسانية فى مقابلة غير عادلة مع الإرادة الإلهية يترتب عليها القول بإلغاء الإرادة الإنسانية بالكلية وإسقاط التكليف والجزاء لقولهم بضرورة إسقاط الإرادة والتدبير الإنسانى مقابل الإرادة الإلهية المطلقة ، وقولهم بوحدة الإرادة وقدمها وشمول نفوذها فى جميع الحوادث .

من أجل ذلك رأينا ضرورة إخضاع رأى الصوفية فى هذه المسألة للتحليل والنقد ، وإيراد موقف الفلاسفة والمتكلمين المعارض لرأى الصوفية وأدلة كل فريق خاصة وأنهم قد اتفقوا على أن الكمال الإنسانى والسعادة غاية كل فعل وكل فكر للإنسان ، واختلفوا حول فكرة تلاشى الوجود الذاتى فى الوجود الكلى العام وأن يحيا الإنسان بلا إرادة أو تدبير سواء فى حال الشهود أو فى أحوال الغيبة والحلول والاتحاد .

لقد انتهز الصوفية فرصة غياب الموقف النقدى من ساحة الفكر العربى الذى كان يمثله الفلاسفة وعلماء الكلام وراحوا يقدمون تأويلات باطنة لحقائق الوجود والمعرفة والحرية والفعل والإيمان والقدرة ووحدة الإرادة ووحدة الوجود كذلك ، وزعموا أن :

● الإرادة واحدة لأن المريد هو الله والمدبر هو الله ، وليس للإنسان حاجة إلى التدبير لأن التدبير والتفكير مناف للتوكل ، وأن التوكل هو ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة ، والاسترسال مع الله تعالى على ما يريد وبالتالى فلا حاجة للمريد أن يتعب من أجل الرزق وقد تكفل الله به لجميع خلقه .

● أن الإنسان الكامل يتحقق فى الحقيقة المحمدية والروح المحمدى . وأن الإنسان الكامل هو الذى يجمع بين الحق والخلق وبالتالى فهو ليس فى حاجة إلى الإرادة أو التدبير والتفكير . واعترض الفلاسفة وعلماء الكلام فقالوا : لا يتصف بالإنسانية إلا من كان حراً مريداً عاقلاً ومفكراً ومختاراً ومسئولاً .

● أن الإنسان فى أحوال التوكل والرضا والقناعة والفناء ليس فى حاجة إلى الإرادة والتدبير ، لأن المريد المتحقق بالرضا والقناعة فى وجود دائم مع الله . وهذا الوجود هو الغنى الحقيقى عن كل وجود وتدبير الله فيه الغنى عن كل تدبير للنفس .

● ولأن الصوفية قد عجزوا عن التمييز بين الأفعال الإرادية المقصودة والموجهة والأفعال اللاإرادية والمتهورة والسالبة . فكان من الضرورى مواجهة خطر قول الصوفية بإسقاط التدبير لأن ترك التدبير الكلى مع الله يحيل البشر إلى مجموعة من المتوكلين العاطلين ، ويجعل المريد بلا إرادة والمؤمن بلا فعل أو عمل ، والحياة بلا حاجة أو طلب والإنسان بلا عقل أو بدن .

وأن القول بإسقاط التدبير يؤدى إلى البعد عن حقيقة الإنسانية وتقييد قدرات العقل وحرمان الإنسان من حقوق الحرية والفعل والتفكير وإنكار دور العقل ووظيفته وأهميته .

كما أن القول بإسقاط التدبير يبعد التصوف عن حقيقته بوصفه سلوك أخلاقى فاضل يقوم على الالتزام بأحكام الشرع والجهاد .

لذا كان لزاماً علينا إثبات خطأ اعتقاد الصوفية أن إسقاط الحرية والإرادة والتدبير مساوياً أو موصلاً لتمام التوحيد ودليلاً على صدق الإيمان والتحقق بالوصول إلى أعلى المقامات والأحوال . والله الموفق والمعين

دكتور
عبد الحميد درويش عبد الحميد